

النسوية الأمومية

«ستات البيوت» في لبنان:
أي دور؟ أي خطاب؟

I - نظرة عامة:

في أواخر عام ١٩٩٥، وصلت نسبة النساء اللبنانيات المتزوجات العاملات خارج منازلهن إلى ١٠,٦٪^(١). هذا يعني أن نسبة اللواتي لا يعملن منهن خارج منازلهن، وسنطلق عليهن في هذه الدراسة تسمية «ستات البيوت»، بلغت ٨٩,٤٪ أي الأغلبية المطلقة. فهل أن الزواج هو المانع لهاته النسوة من العمل؟ تقول الإحصاءات^(٢) إن معدل النشاط الاقتصادي عند العازبات هو في حدود ٢١٪ وعند المخطوبات نحو ٢٧٪ وعند المطلقات نحو ٤٠٪، مما ينبئ بأن الزواج عامل مؤثر فعلاً على خيار العمل خارج العمل. ومن أجل تقديم صورة واضحة حول عمل النساء في لبنان، تشير الدراسات إلى «الانخفاض الواضح لمشاركة المرأة اللبنانية في النشاط الاقتصادي، حتى بالمعايير العالمية، وخصوصاً بالنسبة للبلدان النامية. ففي حين تشكل النساء كمتوسط نحو ٣٨٪ من مجموع القوى العاملة في البلدان النامية (نحو ٤٤٪ في البلدان الصناعية المتقدمة) فإن نسبتهن في لبنان لا تصل إلى ٢١٪»^(٣)، هذا على رغم أن لبنان يأتي في مقدمة البلدان النامية لناحية انتشار

فادية حطيط

(١) عيسى، نجيب؛ التمايز النوعي في مجال النشاط الاقتصادي في لبنان، في: التمايز النوعي بين الجنسين في لبنان، وزارة الشؤون الاجتماعية وصندوق الأمم المتحدة للسكان، بيروت ٢٠٠٠، ص ٥٨.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

تعليم الإناث ومستوياته العالية، ولناحية انتشار أساليب الحياة الغربية (الاستهلاكية والسلوكية) على نطاق واسع مثلما يشير المرجع نفسه.

تشير هذه المعطيات إلى أن المرأة اللبنانية تعطي أهمية كبيرة لوضعها العائلي حينما تود رسم مسارها الشخصي / الفردي. لذلك نلاحظ أن حوالي ثلث الجامعيات أي ٢٧٪ لا يعملن، ويمكن للمرء أن يتوقع أن كثيرات من اللواتي يعملن من هؤلاء الجامعيات هن من العازبات^(٤).

فما الذي يدفع بالمرأة اللبنانية إلى تبني مثل هذا الخيار، المتناقض عموماً مع مسار الحركات النسوية في العالم المتجه (حتى الآونة الأخيرة على الأقل) ناحية تمجيد النشاط الاقتصادي ومشاركة المرأة في سوق العمل والشأن العام، باعتبارها من مكتسبات النضال النسوي؟

ليس من اهتمامات هذه الدراسة متابعة مسار الحركة النسائية اللبنانية ومدى توافقها مع المسار النسائي العالمي (مع أن مثل هذه المسألة تبدو شديدة الأهمية) ولكنني أميل للنظر إلى ضعف النشاط الاقتصادي خارج المنزل باعتباره خياراً إرادياً إلى حد كبير (دون أن أغفل أثر العوامل اللاإرادية^(٥))، وأفترض أن الأمومة هي من العوامل الأكثر تأثيراً على هذا الخيار، وأن الأمر بجملته يعكس نوعاً من الذكاء العملي أو الحنكة التي تسجل في خانة التجربة النسائية اللبنانية. ولكي أتأكد من صحة هذا الافتراض سأتابع الموضوع مثلما يعاش في بعض المجتمعات الغربية والعربية، بالمقارنة مع الواقع اللبناني.

– قضايا راهنة:

تتصاعد طروحات نسائية اليوم متسائلة حول مدى ضرورة اعتبار العمل خارج المنزل هو فعلاً من مؤشرات تحقيق الذات الأنثوية، فبالنسبة إلى بعض المفكرات يمثل هذا التوجه نوعاً من الهيمنة الفكرية الذكورية^(٦). ويبدو أن وجهة النظر هذه آخذة في

(٤) وتشير هنا إلى أن معدل سن الزواج هو ٢٨ سنة للإناث بحسب مسح المعطيات الإحصائية للسكان والمساكن، ويرى الخبراء أن العمر عند الزواج الأول في لبنان هو واحد من الأعلى في العالم. أنظر طبارة رياض؛ ديب، ماري؛ تكوين العائلة والخصوبة والوفاء: المحددات والنتائج؛ في: سكان لبنان، الدراسات التحليلية لنتائج مسح المعطيات الإحصائية للسكان المساكن؛ وزارة الشؤون الاجتماعية وصندوق الأمم المتحدة للسكان، بيروت ٢٠٠٠، ص ٤٦.

(٥) بالطبع أن الشروط الاقتصادية وطبيعة سوق العمل نفسه والتطور الاجتماعي المكبوح لفترة طويلة بسبب الحرب اللبنانية هي من العوامل المؤثرة في وضع العمل النسائي.

(٦) Bihr, A; Pfefferkorn, R; Pour la "parité domestique", in: Manière de voir, *Le Monde diplomatique*, N 44 Mars-Avril, 1999.

التثبت خصوصاً عند ملاحظة تزايد أعداد النساء الأكثر ميلاً للبقاء في منازلهن. في فرنسا حالياً هناك مليونان ونصف مليون امرأة منزل (mères au foyer)^(٧) أو حسب تسميتنا «ست بيت»، أي نساء لا يعملن في سوق العمل. والشكوى الرئيسية لهؤلاء هو ذلك الجحود الاجتماعي الذي يواجهنه ونقص الاعتراف الاجتماعي الذي يعانون منه، والذي يعبر عنه بغياب توصيف مكانة اجتماعية خاصة بهن^(٨).

هذا الأمر تفسره مؤلفة الكتاب الفرنسي المذكور والتي أجرت مقابلات مع ستات بيوت فرنسيات، تبين لها من خلالها أن هؤلاء النسوة متشابهات ومختلفات في آن. وهن يأخذننا بعيداً عن تلك الصورة الكلاسيكية حول ست البيت بوصفها حالة استثنائية وغير ممثلة للنساء المعاصرات. وبرأيها فإن التفاجؤ بشهادتهن يعود إلى أننا لم نراجع نظرتنا لهن، وبسبب عدم إدراكنا أنهن لم يعدن مثلما كن عليه في السابق. وأن تلك المفاهيم المتعلقة بخضوع المرأة وبالذور البطيريركي للزوج الذي يقوم بأود الأسرة، التي ما زالت هي نفسها أدوات تحليل السوسيولوجيين، هي غريبة عنهن كلياً^(٩).

- إعادة تعريف دور ست البيت^(١٠):

تقسم آن أوكلي التعريف التقليدي لدور ست البيت إلى كلمتين الأولى امرأة (ست) والثانية عمل منزلي (البيت)، إذن ست البيت هي امرأة تقوم بالعمل المنزلي. وترى أن البنى الاجتماعية في المجتمعات الصناعية تجعل من هذا الدور عملاً أسرياً ودوراً نسائياً بامتياز. وتعدّد الخصائص التي تميز دور ست البيت في المجتمعات الصناعية الحديثة بما يأتي: أولاً انحصاره بالمرأة وليس بالبالغين من الجنسين، ثانياً ارتباطه بالتبعية الاقتصادية والدور التابع للمرأة في الزواج الحديث، ثالثاً مكانته بوصفه لا عمل - أو بتعارضه مع العمل «الحقيقي» المنتج اقتصادياً، رابعاً أولويته بالنسبة للمرأة، أي أسبقيته على الأدوار الأخرى.

هذا التعريف التقليدي لدور ست البيت لم يعد مقبولاً من قبل العديد من النساء، وذلك بسبب عوامل متعددة نستعرضها فيما يأتي:

١- تغير مفهوم الانتاجية:

ماذا يعني أن يكون المرء منتجاً؟ بالنسبة للمحدثين (ومنهم ستات البيوت

(٧) Deplancq-Nobécourt, Marie-Pascale; *Oser être mère au foyer*, Paris, Albin Michel, 2001.

(٨) المرجع نفسه ص.ص ٥٥-٥٦.

(٩) المرجع نفسه، ص ٦٧.

(١٠) Oakley, A; *House Wife*, High Value-Low Cost, Penguin Books, 1974

المتعلمات) الإنتاج لا يعني حكماً جني الأموال، وإنما قد يتمثل أكثر بالمشاركة في الحياة الجماعية وأنماط هذه المشاركة متنوعة وكثيرة. وست البيت، وهي إن لم تكن منتجة بالمعنى المادي للكلمة إلا أنها تشارك في العديد من المسؤوليات التي تتطلبها إدارة منزلها، من تنظيم شؤون الموازنة، إلى تنظيم شؤون الأولاد، إلى تنظيم علاقة الأسرة بالجماعة المحلية إلى ما هنالك من مهمات تشكل ما يسمى بإدارة الحياة اليومية، وهي كلها أعمال منتجة بالمعنى غير المباشر للكلمة. لا بل قامت بعض الأبحاث باحتساب الأجر المادي الفعلي للأعمال المنزلية وتبين أنها تصل إلى آلاف الدولارات سنوياً.

ويستغرب أصحاب هذا الرأي ربط القيام بالمهام الأسرية بمفهوم العمل التطوعي. ويتساءلون هل من الضروري مثلاً فتح مدارس واختصاص أكاديمي متعلق بالعمل المنزلي حتى يصار إلى الاعتراف به كعمل ذي مردود مادي؟^(١١)

ولكن بموازاة النزوع القوي اليوم للمطالبة بالاعتراف المادي إلا أن بعض النساء يخشين أن يتحول الأجر إلى نوع من الأسر. فنقول إحدى السيدات في تحقيق أجرته نشرة أمان الالكترونية «الأجر الذي تطالب به الكثيرات من ربات البيوت، أشبه بالسكن الذي تمنحه الزوجة لرجلها بنفسها، لتظل طوال عمرها تعيش تحت رحمته، فما دامت تتقاضى مقابلاً لجهدا، فلن تملك الحق بعد ذلك بأن تطالبه برد اعتبارها الذي فرطت فيه منذ أن زادت على أمومتها وواجبها».^(١٢)

يحيلنا هذا النوع من الكلام إلى التردد الذي ما يزال يلف مواقف النساء، والناجم بجزء منه عن غموض الموقف الاجتماعي عموماً من قضية المرأة، إضافة إلى التغيير السريع الذي تشهده المواقع النسائية على صعيد الحياة الاجتماعية. وهذا ما يجعل الطروحات النسائية تبدو عاجزة عن اللحاق بتطورات الوضع النسائي وتقلباته وتأثره بالبنى الاجتماعية والثقافية المتنوعة والمختلفة.

٢- إعادة تعريف ثنائية الخضوع-الاستقلالية:

هل القيام بدور ست بيت هو نوع من الخضوع تمارسه المرأة بملء إرادتها؟ هذا ما رأته بعض نسويات القرن الماضي فربطن ما بين عدم عمل المرأة خارج منزلها وخضوعها لزوجها. ووجّهن أصابع الاتهام لست البيت نفسها، فاتهمنها بالتواطؤ والنعمية من حيث «أنها تستفيد من موقع زوجها وأولادها كثرمن للخضوع، وأن ما

(١١) Noëlla Huot; Larouche-Dubois; La reconnaissance du travail de la femme à la maison: une affaire d'Etat; In **Pensons famille**, Vol. 1, no 6, sep 1989.

(١٢) راجع الموقع الالكتروني «أمان» نشرة مركز الأخبار، المركز العربي للمصادر والمعلومات حول العنف ضد المرأة، السبت ١٠ أيار ٢٠٠٣.

تحصل عليه ست البيت من امتيازات (وراثة الزوج مثلاً) يزيد عما يمكن أن تحصل عليه امرأة مغلوب على أمرها في وضعية أخرى»^(١٣)، والنساء اللواتي اعتبرن عملهن المنزلي واجباً طبيعياً (كما ورد في قول السيدة أعلاه) قدمن بأنفسهن للرجال مصدراً أساسياً لاستغلالهن.

وتفيدنا الأدبيات النسوية عن آثار تمزقات موجعة ما بين النسويات الشابات وأمهاتهن. فالشابات المثقفات اتهمن أمهاتهن/ستات البيوت التقليديات بالتواطؤ السلبي مع القمع الذكوري. واستنكرن صور ست البيت كساحرة المنزل، وملاك البيت، وضربن عرض الحائط بكل مهارات التدبير المنزلي التي أرادت أمهاتهن نقلها إليهن: أطباق الطعام الشهية، مفروشات المنزل الملمّعة، والشراشف الزاهية المعطرة باللافاندر والتطريز والحيكاكة... وهذا ما أدى إلى ظاهرة جديدة تماماً على الوعي النسائي هي انقطاع الانتقال الثقافي في الوسط النسائي^(١٤). فلم تعد الأمهات نماذج تماه وتعليم كافية لبناتهن، وصار على هؤلاء التفتيش عن مصادر لتكوين هويتهم الجندرية الثقافية مختلفة عن مصادرها الجنسية الطبيعية (بيولوجياً وفيزيولوجياً).

هؤلاء الشابات الناقمات في السبعينات تحولن إلى أمهات في وقت لاحق. وبدأ وعيهن، المستمد أساساً ليس من تجربة أمهاتهن وإنما من مقدراتهن الفكرية والتحليلية الناجمة عن مزيد من التعلم والمشاركة في الحياة العملية، ينعكس في مجالات الحياة المتنوعة. فاتجهن معظمهن ناحية العمل، ولكن التجربة التي خضنها والضغط التي تعرضن لها في محاولتهن التوفيق ما بين حياتهن وعملهن، دفعت ببعضهن إلى العودة إلى المنزل ولكن بوعي مغاير. ومن هنا بات من الممكن أو من الضروري إعادة تعريف دور ست البيت وتغيير النظرة إليه.

في التحقيق الذي أجرته نشرة «أمان»^(١٥) الإلكترونية، نقرأ اعتراض ستات البيوت العربيات الحديثات على رميهن بتهمة الإذعان والخضوع، ونستشف في كلامهن تحليلاً عقلياً ونوعاً من الموازنة حيث المصلحة الشخصية تبرز بشكل أكثر وضوحاً. وإذا كان من الصحيح أن بعضهن يرين في الزواج نوعاً من المغريات المادية كمثّل حالة إحدى النساء المستجوبات في التحقيق ولكنهن في النهاية يشعرن بخسارة أكبر من ذلك الربح المادي. فتقول إحداهن «أواجه الخيار الصعب، إمّا أن أسايره (أي الزوج) وأكون

(١٣) Deplancq-Nobécourt, op. cit., p.p 80-81

(١٤) Yvonne KNIBIEHLER; Figures de la mère au foyer, Mise à jour: 6 oct 2002, (www.annuaire-au-feminin.tm.fr/bioKNIBIEHLER.html)

(١٥) الموقع الإلكتروني «أمان» نشرة مركز الأخبار، المرجع السابق.

كالدمية في يده مقابل حياة مترفة وصورة اجتماعية تحسني عليها كل النساء، وإما أعترض على أفعاله التي لا تروق لي لأخسر مكافأته. والنتيجة: العيش مع زوج صعب المراس، دون أن أظفر بالحد الأدنى من الحياة الكريمة، وكما تتم عقود العمل عادة، يجب الموافقة على سياسة رب العمل، أياً كانت من أجل الراتب الممنوح كل شهر، وان كان الراتب هنا يومياً وأكبر بكثير من الذي تحلم به أي موظفة». حتى أولئك اللواتي ما زلن في وضعية الخضوع الصرفة نلاحظ أن وعيهن لتلك الوضعية بات أكثر تأججاً. تقول سيدة أخرى «إن الرجل أناني، لأنه يريد كل شيء، فيها هو زوجي يريدني أمماً مثالية، زوجة مطيعة ومسايرة وربة بيت نموذجية، أما الثمن فهو مدفوع مقدماً في عقد الزواج... أعمل وأكد في بيته حتى أموت، دون أن أمل يوماً في التقاعد».

إن التقلب في المواقف ما بين اعتبار دور ست البيت عملاً تطوعياً وإرادياً يعبر عن استقلالية وبين اعتباره خدمة واستلاب يعبر عن الخضوع، إنما مرده إلى تضمن هذا الدور ووظيفة الأمومة، تلك التي تتحسب النساء من كيفية النظر إليها، فإذا جرى اعتبارها خدمة فكأنما تقبل النساء بإمكانية سلبها منهن، وإذا قبلن باعتبارها عملاً فطرياً أو واجباً طبيعياً كان بالإمكان استغلال تعلقهن الأمومي.

٣ - استرداد الأمومة:

إن مقارنة وظيفة الأمومة نفسها قد تغيرت وبدلاً من تلك الفكرة القديمة التي سادت حركات التحرر النسائية والتي ترى بأن الأمومة عبء لا بل نوع من العبودية، نلاحظ اليوم تحولاً باتجاه اعتبارها وظيفة تحقق الذات الأنثوية. ونشهد اتجاهاً نسائياً قوياً لإعادة نغمة تمجيد قيم الأنوثة وأسرار الأمومة والفرح العائلي والينابيع غير المتناهية للحب الأمومي... تلك التي استنكرتها يوماً سيمون دو بوفوار باعتبارها أدوات الهيمنة الذكورية على النساء^(١٦).

وتشرح Elisabeth G. Sledziewski أن الحركة النسوية في السبعينات والثمانينات كانت ضد الأمومة. والمرأة/ الذات الجنسية كانت أرفع شأنًا من الأم، والعاملة أهم من المربية، وتلك التي تقول «أنا ذاتي» أهم من تلك التي تعلن «أنا متعلقة بالآخر»^(١٧). ولقد جرى بشكل منهجي ومقصود نفي الطابع القدسي للأمومة، خصوصاً مع المكتسبات التكنولوجية والعلمية الجديدة التي أدت إلى اختراع حبوب الحمل وأطفال الأنابيب بحيث صارت الأمومة إلى حد معين عملاً تقنياً. إضافة إلى

(١٦) Elisabeth G. Sledziewski, propos recueillis par Marine Laganier, In ALTERNATIVE Santé (١٦) L'impatient, sept 2001. Interview sur: www.medecines-douces.com

(١٧) المرجع نفسه.

مفاعيل نظرية التحليل النفسي حول الحب الأمومي والتي أظهرت أنه قد يكون مخيفاً وخانقاً ومخصياً... فأدى كل ذلك إلى تنفيس بالون الأمومة المنفوخ.^(١٨)

غير أن نفي الطابع التقديسي للأمومة لا يعني نفيها لها. ولقد بقيت توقاً حقيقياً للنساء، نسويات كن أم غير ذلك. الفارق أن هؤلاء رفضن أمومة -الاستعباد التي هي في خدمة الرجل، واخترن أن يعشن أمومة-المتعة التي هي في خدمة التفتح النرجسي لأناهن الأنثوي. وحينما وُجهن بإزدواجية المهام في داخل وخارج الأسرة، حاولن التفتيش عن صيغ جديدة وعن تمظهرات أخرى لحياة المنزل. فجهدن أولاً في شدّ الآباء باتجاه الأبناء الصغار، ونجحن، مبدئياً، في ذلك، حتى ولو أن عودة الآباء بقيت تجري ببطء. ودافعن عن العمل الجزئي، كما أوجدن صيغاً رعائية نسائية للأطفال في أثناء عمل أمهاتهم^(١٩).

في الآونة الأخيرة، أخذ الباحثون يسجلون باندهاش تطلعاً مكثفاً ناحية الأمومة لدى النساء، ويشيرون إلى تبلور أخلاقية نسوية مغايرة تضع الأمومة في قلب التجربة الإنسانية الغنية. الأمومة تتحول لأن تصبح الطريق الملكية باتجاه الغيرية، وطريق المرأة إلى ذاتها باتت تمر عبر الآخر الذي هو الطفل. ولم يعد من الصعب أن تكون المرأة أما بعد أن تحولت الأمومة إلى خيار مرضٍ ومطلوب. خصوصاً وأن ذلك الاعتقاد الذي كان سائداً بأن الدور الجديد للآباء أو أيضاً الوالدية سوف تشكل حلاً للصراع النسائي بين العمل والأمومة تبين أنه عقيم وأنه نوع من الستار يخفي الصعوبات الخاصة بالمرأة، ويغفل واقع أن دور الأب هو شيء مختلف عن دور الأم وهما ليسا شيئاً واحداً ولا يمكن للواحد استبدال الآخر...^(٢٠)

ما يهمننا في الإشارة إلى إعادة الاعتبار إلى الأمومة هي القوة التي أخذت تطبع الموقف النسائي ببعديه الحديث والتقليدي. ويزيد من هذه القوة في المجتمع اللبناني والعربي عموماً أن الأمومة لم تكن يوماً أمراً مدعاة للنقاش بالحدة نفسها التي طرحت فيها في المجتمعات الغربية. فلقد بقيت ثقافة المجتمع تمجد الأمومة، بالمقابل عملت الحركة النسائية اللبنانية بطريقة ودية وتوافقية مع المفهوم الاجتماعي السائد. وتشير الأبحاث إلى «أن رفض النساء للنظام الجندري الأبوي ليس قاطعاً ولا بسيطاً»^(٢١) أي

Yvonne KNIBIEHLER ,Op.Cit (١٨)

Yvonne KNIBIEHLER, Op.Cit (١٩)

Elisabeth G. Sledziewski, propos recueillis par Marine Laganier, In Santé L'Impatient (c) 1998- (٢٠) 2001.

عزة شرارة بيضون؛ نساء وجمعيات، لبنانيات بين إنصاف الذات وخدمة الغير، بيروت، دار النهار، ٢٠٠٢، ص ٢٠٤.

أن مسار المرأة في المجتمع اللبناني كان مختلفاً عن مسار المرأة في المجتمعات الغربية من حيث عدم اضطرارها إلى القطع مع تراثها الأمومي السابق، وإمكانية توافيقها مع الدور الأمومي من دون مجابهة كبرى مع متطلبات الحداثة والتغيير.

٤ - ضمور الفصل ما بين الخاص والعام والمواطنة الجديدة:

إن الفصل ما بين الحياة العام والحياة الخاصة ارتكز بشكل رئيسي على الاختلاف الجنسي. ولكننا نلاحظ أن هذا الفصل أخذ اليوم في الضمور بعد أن نالت الفتيات تعليماً عالياً، وبعد أن عملت أمهاتهن خارج منازلهن، ولنن أجوراً عن أعمالهن في مهن طالما اعتبرت ذكورية.

إن ضمور المسافة ما بين الخاص والعام كان من العوامل الأساسية التي ساهمت في تغير الوضعية النسائية. فالنساء خرجن من منازلهن باتجاه العمل وحملن معهن مقدرات نسائية لوّنت الحقل العام بصفات أنثوية (العمل الإداري والعمل التربوي باتا عملاً أنثوياً). بالطبع الكثير من المتغيرات الاجتماعية لعبت دوراً في ذلك، وربما يمكن تتويجها بالتطور التكنولوجي الذي جعل العمل الذهني والفكري وليس الجسدي أكثر أهمية.

الأمر الهام هو أن النساء مع خروجهن إلى الحيز العام وإسهامهن في تغييره، صرن اليوم أكثر ميلاً ناحية المطالبة بمزيد من الدمج ما بين الشائين الخاص والعام، خصوصاً بنتيجة التجربة الأمومية التي استعدن هناك عيشها. وتقدم إحدى الباحثات هذا الأمر بعبارات واضحة «وجدت نفسي مشدودة بقوة إلى ما يسمى بالنسوية الأمومية ومحاولتها القيام تحديداً بما يعارضه النقّاد، ألا وهو تطبيق مفاهيم وفصائل المجال المعروف عادة بأنه «خاص» على المجال المعروف عادة بأنه «عام». وأظن أن السبب في هذا يعود إلى أنني وجدت في تجربة الحمل التي مررت بها وفي إرضاع أطفالي ورعايتهم مصدراً لوعي ولتغيير في وجهات نظري تطال ما هو أبعد من علاقتي الشخصية»^(٢٢). إن الذات هي علائقية أساساً... والمقاربة العلائقية تستدعي إعادة النظر في مفاهيم تصنيف فئات العام والخاص التي أدت إلى استثناء النساء من المواطنة الكاملة في كافة أنحاء العام. هذه المقاربة تدعونا إلى النظر في السبل التي تجعل بنية العلاقات «الخاصة»، كالبنية العائلية مثلاً، قادرة على تعزيز أو إضعاف الطاقات اللازمة للمشاركة الفاعلة في المجال العام... إن إعادة تحديد العلاقة بين ما هو عام وما هو

(٢٢) جنيفر ندلسكي، مقاربة علائقية لمسألة المواطنة، في «المواطنة في لبنان بين الرجل والمرأة»، إعداد حمادة وآخرون، بيروت، دار الجديد، ٢٠٠٠، ص ٩٢.

خاص ضرورية لإيجاد تصوّر للمواطنة ينسجم مع التجربة المعاشة»^(٢٣)

ليست ندلسكي هي أول المتكلمين عن المواطنة / الأمومية، فهي نفسها حين سمعت «فرجينيا هيلد تطرح لأول مرة آراءها الثاقبة حول إحلال الأمومة محل العقد كصورة أساسية للسياسة سمعت من يعترض قائلًا إن فرجينيا تضيي مسحة رومانسية على الأمومة». كما أن النقاش لم يتوقف عندها أيضاً. غير أن ما يسعنا الوقوف عنده هو أن الأم اليوم تكبر بوصفها مواطنة^(٢٤). وهذا أمر يغيّر بحد ذاته من طبيعة البقاء في المنزل لتربية الأولاد من حيث إنه انكفاء عن المواطنة المشاركة في الشأن العام، إلى نقيضه، باعتباره شكلاً من المواطنة والفعل العام.

وفي لبنان، تعمل النساء على تشييد الجسر بين الخاص والعام، وإن لم يكن بالوتيرة نفسها أو بالأسلوب نفسه، ولكن في الاتجاه نفسه. «النساء اللبنانيات بادرن، من جهتهن، بالخروج إلى حيّز الحياة العامة معبرّات عن دوافعهن إلى ذلك بالفعل وبالكلمة. وهن انتظمن للعمل الاجتماعي في تجمّعات ومنظمات لغايات متداخلة... فبدا أن بعض هؤلاء النساء ما عدن قابلات مكانتهن الاجتماعية المرسومة ولا بمرتباتها أو بامتداداتها الشبيهة في الحياة العامة، وبتن يعلن عن رغبتهن في لعب أدوار في الحياة العامة متناسبة مع مؤهلاتهن المكتسبة التي تجعلهن مساويات للرجال. لا بل تصرح فئة منهن بأنها ستسعى للعمل على تبديل بعض ملامح هذه الحياة العامة لتتناسب مع رؤيتهن الخاصة لها»^(٢٥).

٥ - تعظيم الطفولة:

الوجه المقابل لتمجيد الأمومة هو تعظيم الطفولة. صحيح أنهما وجهان لعملة واحدة، ولكن يبدو أن الوجه الثاني كان محركاً للوجه الأول وليس العكس. لقد استفادت النساء كثيراً من الانتباه إلى حاجات الطفولة. فالفكرة الأساسية التي جعلت مطلب التعليم للنساء أمراً مقبولاً اجتماعياً هي مردودية ذلك التعليم على الأطفال. وتفيدنا الدراسات أن تنشئة الطفل لم تكن دائماً تجري في حلقة الأمومة، بل إنها في البدء كانت عملاً رجالياً، «فقد كان الأب، وليس الأم، هو المسؤول عن تنشئة الطفل. كان هو الذي يسميه ويختار مرضعته وكان هو المسؤول عن نموه الجسماني والعقلي»^(٢٦).

(٢٣) المرجع نفسه، ص ٩٠.

(٢٤) Yvonne KNIBIEHLER, Op.Cit

(٢٥) عزة شرارة بيضون؛ المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٢٦) افسانة نجم أبادي؛ تصنيع زوجة متعلمة في إيران؛ ترجمة عبد الحكيم حسان، في «الحركة النسائية وتطورها في الشرق الأوسط»، تحرير ليلي أبو لغد، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩، ص ٩٦.

وتدريجياً أخذ يجري الربط ما بين الأم الجيدة والأمة القادرة. وأصبح تأكيد دور الأمومة على أسس علمية وعقلانية مقترنا بتقدم الأمة ومصاعاً على المستوى المفهومي في علاقة وثيقة بمفاهيم الصحة والثروة وحيوية الأمة وسكانها»^(٢٧)

وبدون الدخول في تفصيل تطور المفهوم التربوي الحديث و«التحول الذي حدث في اتجاه إكساب المرأة المسئولية الأساسية والمركزية في تشكيل شخصية الطفل»^(٢٨) وكيف «أن تعليم الأمهات أساليب علمية لتنشئة الصغار، وأهمية وجود إطار أخلاقي مميز للممارسة الاقتصادية، وكان ذلك جزءاً لا يتجزأ من التحولات التربوية في القرن التاسع عشر، ويستلزم هذا تقسيماً حديثاً للعام والخاص إلى مجالات منفصلة ذات صلة بمفاهيم جديدة خاصة بالمجال المنزلي على نحو متمايز عن السياسة والاقتصاد والإدارة». وعلى عكس ما يرى البعض في أنه حصر لدور المرأة في المنزل وفي التربية، فقد جرى الأمر كله في مصلحة النساء، إذ «قدم النساء اللاتي يشغلن مكانة المدير المتعلم للمنزل ومكانة رئيسه بدلاً من أن يكن جزءاً من المنزل خاضعات لإدارة الرجل- الأسس المعتمدة لأنشطة الحركة النسائية في الحياة العامة والاعتراف القومي بها، ولم تكن محبطة لها على الإطلاق»^(٢٩).

على أي حال إن تطور النظرة إلى الطفولة أدى إلى نشوء إعلان رسمي حول حقوق الأطفال في العام ١٩٨٩. وبالطبع فإن الأهل هم الجانب الأول المدعو ليس فقط لاحترام هذه الحقوق وإنما للإشراف على جعلها محترمة من قبل المجتمع، وهذا ما يفترض مشاركتهم، آباء وأمهات، بشكل فاعل ونيبه في القرارات السياسية على كل الصعد.^(٣٠) إذن فالنساء اللواتي تسنمن مهمات التربية والرعاية هن الفئة الأكثر دفعا للموضوع التربوي الذي تحول إلى شأن نسائي خاص لكي يصبح موضوعاً اجتماعياً عاماً.

٦ - المنظور النسوي ما بعد الحداثي:

ثمة عامل آخر أثر من دون أدنى شك على التصورات المتعلقة بالدور النسائي عموماً، ويتعلق بالمنظور النسوي ما بعد الحداثي، ذلك الذي يرفض التصور الواحد لهوية^(٣١) موحدة، ويحتفي أكثر بتنوع المظاهر والرؤى. وبدلاً من التصور المرتبط

(٢٧) أمينة شاكري، الأم المتعلمة واللعب المقنن: تنشئة الأطفال في مصر عند منعطف القرن، ترجمة خالد عبد المحسن بدر، في المرجع نفسه، ص ١٤٥.

(٢٨) المرجع نفسه ص ١٤٤.

(٢٩) أفصانة نجم أبادي، مرجع مذکور، ص ١١٤.

(٣٠) Yvonne KNIBIEHLER, Op.Cit

(٣١) Ingrid Gunby; A Postmodern Feminist Identity Politics

بامرأة معينة يجرى التعامل أكثر مع فكرة النساء المتعدّدات. وهذا ما يدفعنا إلى إعادة فحص فكرة أن ستات البيوت يشكلن فئة متجانسة في هويتها وفي تمثلاتها.^(٣٢)

والشيء البارز في تجاوز المفهوم النسوي القديم حول المرأة هو رفض «الاعتقاد الراسخ في كون الأنثى ضحية للنظام الأبوي المتمتع بكل أسباب القوة...»^(٣٣)، والنظر إلى المرأة باعتبارها قادرة على رسم خيارها الشخصي وفي الاتجاه الذي تريده. وتأكيداً على هذا الاتجاه، تبين الدراسات الحديثة حول نساء البيوت في الدول العربية أن هؤلاء «لا يمكن تصنيفهن باعتبارهن ضحايا سلبيات كما أن تعليقاتهن الحادة والساخرة غالباً، في مجالسهن الخاصة، على الرجال والسلوك الرجالي توحى بأن هؤلاء النساء لا ينبغي حصرهن في دور الشريكات المراعيات والراضحات تماماً»^(٣٤).

إن الخروج من أسر التنميط والرسم الايديولوجي للمواقع وتحرر الأفراد من سطوة التصنيفات الذهنية شكلت عامل دفع للفئات الاجتماعية كافة إلى التحرر من القوالب الجامدة. فلم يعد قالب ست البيت بالضرورة قالباً تقليدياً كما أن التقليدية بذاتها لم تعد سمة سالبة، وصار البعض يطالب بـ «قراءة مضادة للمنظور الحدائي الذي يكرّس ثنائية الحديث في مواجهة التقليدي»^(٣٥). إن إعادة الاعتبار إلى المعيش والريّة والحرية أدت إلى تغيير النظرة وأعطت التعبير النسائي قوة دفع جديدة، كما ساهمت بضخّ دم جديد في الحركة النسائية فلم تعد حكرًا على فئة محددة من النساء ذوات الاتجاهات المحددة والمرثيات اجتماعياً، وإنما انفتحت على النساء «اللامرثيات» العاملات في المجال الخاص (ستات البيوت، العاملات الزراعيات في الأسر....).

II - ستات البيوت في المجتمع اللبناني:

في ضوء هذه التغيرات كيف ترى «ستات البيوت» اللبنانيات إلى واقعهن؟ ما هي معالم دورهن الراهن؟ ما «قولهن» فيما يقمن به؟

للإجابة عن هذه الأسئلة قمت بمقابلة ثمان نساء لبنانيات أمهات غير عاملات خارج منازلهن، من مناطق وانتماءات ومستويات تعليمية مختلفة^(٣٦)، جميعهن ما بين

(٣٢) Emmanuelle Maunaye, *Temporalistes*, n° 17, Les temps familiaux, mai 1991, pp. 11-15.

(٣٣) سارة جامبل، *النسوية وما بعد النسوية*، ترجمة أحمد الشامي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٢ ص ٨٢.

(٣٤) أرلين علوي مكلويد؛ *الاحتجاج الهادي: المرأة العاملة والتحجب الجديد والتغير في القاهرة*، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ص ٦١.

(٣٥) هدى الصدة؛ *سيرة كوكب حفني ناصف*، في «النساء العربيات في العشرينات حضوراً وهوية»، بيروت، تجمع الباحثات اللبنانيات، ٢٠٠١، ص ١٩٨.

٤٤- ٥٥ من عمرهن. ولقد طرحت عليهن عدداً من الأسئلة المحددة ولكنني تركت المقابلة مفتوحة على المدى الذي حمله كلامهن.

١ - رضى أم عدم رضى؟

من الصعب تصنيف أجوبة النساء تحت أحد العنوانين. ثمة قبول واقعي بدورهن ولكنه أحياناً يتلون بشيء من التمني للتغيير. تقول ميريانا (٤٤ عاماً، شيعية، لم تنه الثانوية، أم لصبيين) «أفضل أن تكون المرأة ست بيت لأنها تتعب في التنسيق ما بين عملها وبيتها ويمكن أن تهمل. لم أكن أتمنى أن أكون شيئاً آخر. وإذا كنت أتمنى الآن فبسبب الأوضاع الاقتصادية، ويقول الواحد يا ليت يمكن أن يسند حاله مادياً، ولكن إذا كان الإنسان مرتاحاً مادياً أفضل أن تكون المرأة ست بيت. أنا لا أحب التعب كثيراً. هذا بطبعي. زوجي لا يحب عمل المرأة خارج المنزل، سنحت لي فرصة للعمل في خطوط جوية ولكنه لم يوافق. أحب لو أن لدي محلاً (تجارياً) أجلس فيه وأتسلى. أفتح وأغلق ساعة اشاء، لا أحب أن أكون محكومة». أما مريم (٤٧ عاماً، سنية، لم تنه الجامعة، أم لصبية وشاب أعزبين) فشاءت ظروف زواجها ومرافقتها لزوجها في سفره أن تمنعها من العمل مع أنها كانت ميالة للعمل، مع ذلك وبنتيجة تجربتها تخبرنا «أنا الأقي سعادة بعلمي في البيت. الذي يعمل لديه عبء ولديه وظيفتان واحدة خارجية وأخرى داخلية. ولا يمنع أن هناك إمكانية للتوفيق بين الاثنين إذا كان العمل في الخارج لا يأخذ كثيراً من الوقت. سنحت لي الفرصة للعمل ولكني لا أريد. العمل ميزته أن يحقق علاقات وأنا لدي علاقات وأصحاب هي ذاتها علاقات وأصحاب زوجي. ليس الأمر أنني لا أريد أن أعمل، ولكن العمل الذي أتيح لي لا يأتي بثمن تعب. ثم هناك توفير في العمل داخل المنزل، بينما العمل خارج المنزل يتطلب مستلزمات. أنا لست نادمة. أنا حققت أشياء كثيرة». غير أن جميلة (٥٣ عاماً، سنية، شهادة ثانوية، أم لأربعة أولاد: شابتان متزوجتان، شاب متزوج وشاب أعزب) ليست راضية، فبرأيها «ضروري أن تعمل المرأة لأنها إذا أرادت الانفصال عن زوجها يمكنها أن تأخذ شقة صغيرة ولا تسأل عن أحد. أنا أحب أن تعمل المرأة». أما سيلفا (أرمنية، ٤٦ سنة، تعليم متوسط، أم لابنتين وشاب غير متزوجين) فبالنسبة لها هي «راضية وليست راضية في الوقت نفسه. أنا لا أحب حياتي، أشعر بأن هناك شيئاً ناقصاً. اشتغلت لفترة بائعة ولكنني تعبت. أنا لا أحب العمل، ولو أنني مكتفية مادياً لما كنت أطلب عملاً. أحب شغل البيت. أحب بيتي. ست البيت ترتاح أكثر من اللواتي يعملن في الخارج. هؤلاء يتعذبون وينقصهن الحنان، يعتدن

(٣٦) نشير إلى هذا الاختلاف بقصد تجاوزه لا التوقف عنده. ولا يهمننا منه سوى دلالاته على سمة التنوع الأساسية في المجتمع اللبناني.

على الخادمة. الأم يجب أن تبقى مع أولادها حتى ست أو سبع سنين ثم تعمل إذا أرادت. المرأة مظلومة. تتعذب وتحمل الرجل وتحمل المشاكل وعليها أن تسكت. بما أنني لست قادرة مادياً عليّ أن أسكت. لو أن أهلي أحوالهم جيدة كنت تركت البيت وذهبت عند أهلي. أهم شيء أن يكون لدى المرأة دبلوم. وأن تعمل إذا أرادت. أنا نادمة. أنا أحب أن أكون ست بيت ولكني لو كنت متعلمة كنت طلقت وخرجت وعملت واشترت منزلاً. بالمقابل تقول فاطمة (٤٥ عاماً، شيعية، شهادة ثانوية، أم لشابين وصبية غير متزوجين) «أنا ضد عمل المرأة في الخارج لأن المرأة عندما تنجب أبناء يجب أن تربي أولادها لا أن تتركهم للسيرلانكية. يمكن للمرأة أن توفق، ولكن سيبقى هناك تقصير لأن الزوج يأتي إلى منزله ويريد أن يأكل ويرتاح. يمكن أن تطبخ المرأة العاملة ولكن لا تستطيع أن تكوي له ثيابه. هذا يؤثر ويعمل شراً في العائلة. لا يمكن التوفيق مئة في المئة. سيكون الأمر على حساب حياتها هي أو على حساب حياة عائلتها». أما جانب (٥٠ عاماً، بروتستانتية، إجازة جامعية، أم لشاب وصبية) فهي قبل الزواج كانت تعلم في مدرسة راقية في بيروت «وعندما أنجبت ابني سنة ١٩٨٢ تركت المدرسة لمدة سنة مبدئياً ولكن جرت السنوات ثم أنجبت ابنتي وبقيت في المنزل. لم أندم، لأن أطفالنا كانوا صغاراً وحتى عمر ١٠ سنوات يحتاج الأطفال إلى أمهم. بشكل عام أنا راضية». وتقول غريس (١٩٥٧، أميركية الأصل، دبلوم في إدارة الأعمال، متزوجة من لبناني، أم لابنة شابة غير متزوجة): «أنا ديناصور (باعتبار أن ستات البيوت انقرضن) رافقت زوجي إلى السعودية ولم أجد عملاً يناسبني، خصوصاً وأني لست عربية. ولم أكن محتاجة مادياً للعمل. ولم يكن لدي شيء محدد أود أن أقوم به. أن أكون عائلة كان الأمر الأكثر أهمية بالنسبة لي، ولم يكن لدي مشروع ينافس ذلك، إضافة إلى نقص خبرتي. أنا لست تنافسية. ووجدت أنه أهون عليّ أن يهتم زوجي بالأمر الخارجي وأهتم أنا بعائلتي. المنزل أكثر راحة لي. وحتى ولو لم أقم بعمل المنزلي جيداً فسيضايق مني فقط شخصان هما زوجي وابنتي لا أكثر. أنا شخص تابع بخياري وبدون أن يجبرني أحد على ذلك. عندما أفكر بحياتي أقول ربما كان يمكن أن أعمل شيئاً آخر ولكني أعتقد أنني راضية». ورغدة (٤٥ عاماً، سنية متزوجة من شيعي، تعليم متوسط، أم لأربعة بنات إحداهن متزوجة ولديها طفل) ترى أن الظروف جعلتها تبقى في المنزل «هذا ليس في طبعي. أنا أحب أن أعمل شيئاً. ولكنني تزوجت صغيرة ابنة ١٥ عاماً ولم أجرب الشغل. أقول وأنا في هذا العمر يا ليت لم أتزوج صغيرة، ربما شفت الدنيا أكثر. أنا مظلومة، ربما لأنني تزوجت صغيرة».

فقط واحدة من بين الثماني كانت ضد عمل المرأة بشكل قاطع، وواحدة منهن كانت مع عمل المرأة بشكل قاطع، والأخريات جرت الأمور بهن في مسار العمل

المنزلي، ثم قبلن الأمر وتكيفن معه ووجدن بالممارسة أن فيه إيجابيات (توفير المال، تربية الأبناء، الاهتمام أكثر بالزوج، راحة، علاقات، عدم تنافس...) وفي التوغل أكثر في الأجوبة نجد نوعاً من التأسف على عدم العمل، يجري التعويض عنه في التوكيد على أهمية التواجد مع الأطفال حتى عمر ٨ أو ١٠ سنوات. وكما يبدو، فإن هؤلاء النسوة متوافقات أكثر مما هن راضيات، ولم يصلن إلى درجة صياغة مفهوم خاص عن عملهن. وعلى الرغم من تشابه الوضعية بينهن وبين «ستات البيوت» الفرنسيات، إلا أن التأسف والتذبذب (كنت أتمنى ولم أجد وأنا سعيدة) والهروب باتجاه التوكيد على الناحية الشخصية (أنا بطبعي كذا. أنا لست تنافسية. أنا تابعة بخياري) أكثر مما على الناحية الاجتماعية يجعل خطابهن مغايراً لخطاب النساء الفرنسيات الواعيات بدورهن الاجتماعي وتوكيدهن على أهميته واستنكارهن للجحود الاجتماعي وسعيهن لتغيير القناعة بشأنه.

٢- الإرث الأنثوي:

هل ترغب «ستات البيوت» بأن تعمل بناتهن خارج منازلهن أو في الداخل؟ هنا أجمعت النساء على رغبتهن بعمل بناتهن في الخارج. وركّزت أقوالهن على رغبة البنات بتخطيهن بشكل سافر وعدم القبول بنموذج أمهاتهن. وفي هذا الصدد تقول مريم «ابنتي تريد أن تعمل بالتأكد. ترى أنني ما كان يجب أن أكون كما أنا عليه. تسألني لماذا أنا «رخوة» إلى هذا الحد. تستنكر ذلك مع أنني لست رخوة، لأنني في النهاية أخذ القرار الذي أنا مقتنعة به». وتنظر سيلفا إلى الأمر بنوع من البراغماتية فتقول «إذا تزوجت ابنتي من رجل قادر مادياً تبقى في المنزل، أما إذا احتاجت للعمل فستعمل. تقول لي ابنتي أنا لو كنت مكانك كنت اشتغلت وأخذت منزلاً صغيراً لي... اليوم يتطلب أن يعمل الزوجان. ابنتاي تدرسان والكبيرة تدرس إدارة فنادق في جامعة هايكازان وتعمل في نفس الوقت وأنا سعيدة من أجلها». وتتبنى غريس موقفاً براغماتياً شبيهاً وإن بنفحة عقلانية أكبر فتقول «أنا أعلم ابنتي حتى تكسب خبرة، وإذا ما كان عليها أو أرادت أن تعمل، عليها أن لا ترى أن الأمر هين. فالعمل ليس لهو ولا تسلية، فيه تعب ومسؤولية. أريد أن يكون لديها إمكانية للشغل وأنا أفسر لها أنه يمكن أن تعمل ويمكن أيضاً أن لا تريد ذلك». أما جميلة فموقفها واضح مع عمل المرأة «ابنتي تعمل والثانية كانت تعمل وتوقفت بعد أن أنجبت ولكنها هي التي تدير أعمال زوجها. المرأة يجب أن تتعلم وتعمل حتى لا تظلم». وبالنسبة لمريانا فهي مترددة إلى حد ما نظراً لكونها أمّاً لذكور فقط فتقول «أنا ليس لدي بنت. ولكن لو كان عندي بنت يمكن كنت علمتها أن تكون ست بيت. لأن البنت آخرتها أن تقعد في البيت وتزوج». ومع أن فاطمة كانت

ضد عمل المرأة بشكل قاطع إلا أنها تحب أن ترى ابنتها تعمل «تعبت ودرست وعملت اختصاص. إذا تزوجت رجلاً مرتاحاً مادياً يمكن أن تبقى في المنزل. أنا أتخيلها مهندسة، عندها مكتب وموظفين وتدير الأعمال. حياتهن غير حياتنا. انا لا أتصورها ست بيت. صحيح هي تعرف تدبير المنزل ولكني لا أتصور أنها تقبل أن تكون فقط ست بيت». وجانيت التي كانت تعمل في المدرسة تقول «ابنتي قوية، هي في آخر سنة ثانوية. تأخذ حقوقها وهذا ما أريده. العمل لا يتعارض مع الأنوثة. أكيد أريد أن تعمل ابنتي. ظروف الحرب جعلتني أبقى في المنزل، ولكني أريد أن تعمل ابنتي. أشجع ابنتي على أن تشتغل قبل الزواج. لا نعرف كيف تتغير الأحوال. أهم شيء هو أن تتعلم». ورغدة «مبسوطة لأن بناتي قويات ولا يشبهنني. عندما تزوجت ابنتي صارت أكثر شبهاً بي. أحب بناتي يعملن لا أن يكنّ ستات بيوت».

تبين أجوبة النساء عن ترق للتغيير يعاش ليس على صعيدهن الخاص (بسبب نقص التعليم أو قلة الخبرة أو الظروف العامة) وإنما من خلال بناتهن، وهن أنفسهن يعلن عن سعادتهن بعدم شبههن بهن.

ولكن هل كانت نساؤنا أنفسهن شببهات بأمهاتهن، أم تجاوزنهن وفي أي منحى؟

إجابات النساء تنم عن تجارب متنوعة مع الأمهات. وإذا كانت رغدة (المظلومة والنادمة) تقع على طرف ليس فقط التشابه مع والدتها وإنما التخلف عنها فتقول «أنا أحس أنني عشت نفس حياة أمي. وربما أمي خرجت أكثر مني. أمي تحب العلاقات والجيران وليست مثلي. أبي كانت شخصيته عاقلة وربما أنا أكثر شبهاً به». كذلك الأمر بالنسبة لمريم (المرأة المدبرة) فهي تقول «أنا لم أحس أنني عملت نقلة. أمي وأبي كانا يخرجان ويسهران ويسافران كثيراً. كانا مودرن. أمي كانت تبقى خارجة. أنا وأخي كنا نربي إخوتنا الصغار. في السابق كان الأولاد يربون بعضهم البعض. الآن نحن نتابع أولادنا من البداية حتى النهاية. أنا أكثر تخطيطاً ومسؤولية من أمي». وغريس (الأميركية اللبنانية) أيضاً تراجعت عن مسار والدتها وتقول «ربما يجد الناس أنني رجعت إلى الوراء مقارنة بأمي. هي درست واشتغلت واتكلت على حالها. ولكنها أيضاً كانت ترى أن على المرأة أن تهتم بمنزلها. أمي وجدت صعوبة كبيرة. تخرجت من الجامعة واشتغلت سكرتيرة إدارية وكانت لديها مهارات إدارية، حين كنت في المدرسة وعلّي تحضير paper كانت تبقى سهرانة من أجل استكمالها لي وأنا نائمة. كانت تريد أن توفق بين العمل والمنزل. أنا لم أراجع عنها فعلياً. كل شيء كان سهلاً عليّ ولم أجد ضرورة للركض كما فعلت هي، لست خجلة من أنني لم أقم بشيء كبير». ولكن فاطمة (الرافضة لعمل المرأة قطعياً) تقول «حياتي أنا مختلفة عن أمي. أمي أمية. أنا

أقرأ. أنا علمت أولادي. هي لم تعلمني. هي كانت تعمل في الحقل، وكنا نعود إلى المنزل وهي ليست موجودة، من هنا أنا وجدت من الضروري أن أبقى في المنزل. أحسست بأنني لم آخذ العاطفة والحنان اللازمين. أنا أعطيت أولادي كل العاطفة والحنان. أنا آخذ قرارات أكثر من أمي». وأيضاً ميريانا (المرأة التي تحب الراحة) ترى نفسها مختلفة عن أمها «حياتي مختلفة عن حياة والدتي. أمي كانت عاقلة وطيبة كثيراً. أنا مختلفة. أنا كلمتي أكبر في البيت. أنا شفت أمي عاقلة، وقلت لنفسني أريد أن تكون لي شخصيتي. إذا أراد زوجي القيام بأي أمر يسألني وإذا لم أوافق لا يقوم به. أما أبي فكان يسأل أمي ولكنه يعمل ما يريده. أنا لست كما أمي». وجميلة (المرأة المتدينة) هي أيضاً ليست كأماها «أنا أشبه والدي وهو متطور. أنا سمحت لأولادي بالخروج وهي لم تسمح لي. أمي كانت مثالية وحنونة وقاسية. لم تظلمنا. كنا نخاف من أمي، لولاها لما كنا تعلمنا. هي كانت قاسية لمصلحتنا، والدي كان رجل دين ولكنه كان متساهلاً». أما سيلفا (الأرمنية الناقمة والتي ترغب بالحصول على منزل خاص) فتقول «أمي كانت مطلقة قبل زواجها من أبي، وكانت تشتغل. حياتي أحسن من حياة أمي. أمي تعذبت أكثر مني. تزوجت مرتين وطلقت مرتين. أمي لا تستطيع أن تسكت. لو أنها سكنت ولم تطلق كانت ورثت منزل زوجها الذي توفي بعد ٦ أشهر من طلاقها. أنا فكرت إذا طلقت ربما أصبح أضرب (أسوأ) من أمي. أنا أقوى من أمي». وأخيراً جانيت (المرأة الجامعية) تختصر الموضوع بجملة واحدة «حياتي كانت مختلفة عن حياة والدتي».

ليس العمل هو المؤشر عن تدهور حال المرأة أو تطورها بالمقارنة مع والدتها. في العينة هناك بنات نساء عاملات لم يعملن لأنهن لم يجدن في عمل أمهاتهن الاستقلالية والتحقق الذاتي التي أردنها، واللواتي جئن من أسر لم تعمل الأمهات فيها. صحيح أنهن شابهن أمهاتهن في عدم العمل، غير أنهن عبّرن عن اختلافهن عنهن في الإمساك بقرارات حياتهن. فالعمل لا يكفي ليكون مؤشراً عن مدى استقلالية النساء أو العكس، مثلما تقول مريم «المرأة حسب شخصيتها، يمكن أن تكون قوية دون أن تعمل».

وتبدو ستات البيوت أكثر عملائية في خياراتهن. يخططن وينظمن شؤون منازلهن، ويسووين الوضع المناسب من أجل أن تخرج بناتهن إلى العمل. واللافت أن سيدات العينة، لم يتعاملن مع واقعهن بتنظير وإنما بواقعية شديدة، واحتسبن المع والحد ورأين من المناسب أن يبقين في منازلهن. وعندما أجرين الحساب نفسه مع بناتهن، كان الوضع أميل لناحية العمل، من هنا شدّد جميعهن على التعليم وعلى ضرورته.

ثمة صعوبة في إيجاد خيط جامع لتجارب أجيال النساء. لم تبين أي واحدة على تجربة أمها. لا بل بالعكس يميل العديد منهن إلى نقد تجربة أمهاتهن (لم يربينهن كما

يجب، لم يكن عقلانيات كفاية، كنّ راضحات أو قاسيات أو متعبات) بالمقابل أيضاً تنم أجوبتهن عن رغبة بعدم شبه بناتهن بهن. ونتساءل ما هي قاعدة انبناء شخصيات هؤلاء النساء؟ إن الشيء البارز هو التوكيد على الأمومة وأهميتها خصوصاً فيما يتعلق بهن وبأمهاتهن، أما فيما يتعلق ببناتهن فلا يعود الأمر ذا أهمية تذكر، ولا يعود العمل معوقاً للأمومة، مما يوحي بأن التشديد على الدور الأمومي هو تعويض عن واقع حال غير مرضٍ. وربطاً مع الميل التوافقي الذي ظهر في أجوبتهن السابقة، ومع التذبذب تجاه خيار العمل فإننا نصبح أكثر قناعة بعدم وجود خيارات فعلية أمام هؤلاء، وبوجود شيء من القصور في وعيهم بمكانتهن وبدورهن.

٣ - الموقف من الحركة نسائية:

تفاوتت آراء سيدات العينة اللواتي كن ضد وجود حركة نسائية. رغبة التي قالت «أنا لا أعرف ماذا يجب أن تطالب النساء به. مثلاً أنا شخصياً كنت طالبت بأن أعمل. أحياناً أرى النساء قويات ولسن بحاجة للمطالبة بشيء. لا أعرف ماذا تفعل الجمعيات النسائية. نعم هناك تأثير. وضع المرأة تحسن أكثر من السابق». أما جميلة فبرأيها «ليس هناك قضية اسمها قضية المرأة. هي الأمرة النهائية. الحكم للمرأة ٩٩,٩٩٪. البنت ضعيفة بالجسد. تقول النساء إنهن يردن المساواة؟ كيف؟ إذا أردن تغيير قنينة الغاز هل يمكنهن حملها؟ النساء الفاجرات يعلّين الصوت ويشلّحن رجالهن المال. وبعض الرجال يسرقون من أجل إرضاء زوجاتهم، والأولاد متطلبون بسبب تربية أمهاتهم. نساء الجيل ما بين ٣٥-٣٧ المرأة فيه هي الحاكمة. إنه جيل فوفاش (سطحي أو تافه). تذهب المرأة إلى المطعم وتقلّد هيفا وهي. أنا مع حركة نسائية تطالب بحقوق المرأة من الخارج وليس من منزلها. المرأة لا تصل إلى المراكز العليا بسبب عدم جديتها، وهي عليها أن تتعلّم وتعمل حتى لا تُظلم. الإنسان حينما يريد شيئاً يستطيع أن يقلع الصخر. الأمر فردي ولا يتطلب وجود حركة نسائية. خذي مثلاً حزب الله وقف أمام إسرائيل التي لا تقهر بسبب إيمانه وعقيدته المتماسكة. أنا لدي قناعة بأن الظلم قدر، عليك أنت بنفسك معالجته وإذا لم تستطعي فلا حول ولا قوة إلا بالله. نعم يمكن أن تصير لدينا حركة نسائية ولكن ليس في المستقبل القريب، وليس عند المسلمين. عند المسلمين ليس من نتيجة، عندما يقول الشرع أنت طالق، ينته الأمر. الرجال قوامون على النساء، هذا في الآية الكريمة أما في الواقع فبالعكس». ومريم أيضاً تجد أن «المرأة في لبنان وضعها جيد. مع أنه ليس بالإمكان التكلم عن الجميع. بالإجمال المرأة في لبنان مغنجة كثيراً. إنها تريد كل شيء خادمة وسيارة وشوفير(سائق). والست عندما تعند تصبح طلباتها مجابة. الرجل يسرق، يرتشي، ينهب من أجل أن يحقق طلبات

عائلته. أصلاً حياتنا الاجتماعية متطلبة كثيراً، في الخارج المتطلبات كثيرة ولكن على الحساب الشخصي. فقط الأغنياء بإمكانهم الحصول عليها، وليس طبقة الشعب. هنا ليس الأغنياء فقط وإنما الطبقة الوسطى كلها تريد الصعود. أنا مثال على ذلك. عندما أذهب إلى الخارج يسألونني أين أنت مرتاحة أكثر أقول في لبنان. لماذا؟ هنا عندي خادمة، مصعد، سيارة وعندي من يحمل الأغراض. نعم هناك نساء حقوقهن مغبونة. الطلاق مشكلة عندنا، ولكن الست بحنكتها. الست هي التي تدولب (تسير أو تدير) الرجل، تستطيع أن تضحك وتلعب عليه الشكر بكر (تحتال). الرجل مثل الماريونيت. الست يجب أن يكون لديها النفس والصبر. المهم أن لا تعند وتضع رأسها برأسه. القانون ليس معها. عليها أن تعود إلى طرق خاصة. فلتحسبه مثلاً خادماً عندها، تضحك عليه فيؤمّن لها كل ما تريده. عندما يصل الأمر إلى الطلاق يصبح كل شيء للرجل ولكن قبل الوصول إلى هنا، يمكن للمرأة أن تأخذ منه أكثر مما يعطيها إياه الحق الشرعي».

في الجانب الآخر، توافق النساء الخمس الباقيات على ضرورة وجود حركة نسائية. فاطمة (الرافضة لعمل المرأة) تقول «نعم هناك الكثير من الحقوق لم تحصل عليها المرأة. يجب أن يكون هناك حركة نسائية. مثلاً أنا أرى خاصة الآن أن سيدة متزوجة يمكن أن يتزوج عليها زوجها امرأة ثانية ولا تستطيع أن تطلق. يجب أن يكون لديها قرار، لماذا يجب أن تكون العصمة بيد الرجل وليس بيد المرأة؟» وبالنسبة لميريانا «المرأة اللبنانية لم تأخذ حقوقها مثل المرأة الغربية. يجب على المرأة أن تعمل. يجب أن يكون لها قيمة في كل شيء. يجب أن تكون مسنودة وتستطيع أن تقول كلمتها. ما زالت المرأة في لبنان وفي العالم العربي غير مستقلة وغير واصله لأي شيء. إذا لبست المرأة وخرجت من منزلها، هذا لا يعني أنها تحررت. أنا أقصد يجب أن يكون لها كلمتها في بيتها وفي مجتمعها. في الخارج حقوق الزوجين مشتركة، البيت نص بنص، مثلاً هنا يروح الرجل ويتزوج مرة أخرى ويقول للمرأة عجبك أم لم يعجبك. في الخارج لا يستطيع الرجل أن يتصرف هكذا مع المرأة». وسيلفا ترى «يجب أن يكون هناك حقوق للمرأة. حتى ولو كانت ست بيت عليه أن يعرف أن للمرأة كلمتها ولها الحق». وبالنسبة لجانيت أيضاً يجب أن يكون هناك حركة نسائية «طبعاً هناك قضية امرأة. أنا كنت أحب لور مغيزل. مطلوب المساواة بين الرجل والمرأة. حتى في الدين ليس هناك مساواة، حتى في الوظائف وفي الدولة ليس لديها شيء. ليس هناك امرأة وصلت إلى مراكز قيادية. ١٠٠٪ مطلوب حركة نسائية، وعلى المرأة أن تطالب بحقوقها. المرأة اللبنانية متعلمة درست طب أو هندسة ولكنها لا تدخل في حركات نضالية. حتى في الأجور المرأة لا تأخذ أجراً مثل الرجل. في الأرياف ليس هناك من

يساعد المرأة. هناك الكثير من الأمور المفروض مواجهتها. لدينا ثقافة التستر. حالات الاغتصاب والثأر والقتل كثيرة». وغريس تعتقد بضرورة «أن تشتغل النساء لحقوقهن من أجل المحافظة على المستوى الذي بلغته. ويجب أن يصار إلى تشجيع المشاركة في الانتخابات وفي النهوض. إذا كانت المرأة لا تشعر بوجود نقص معين، ولكن عليها المطالبة من أجل التحسين. أنا لا أعرف أن لدى المرأة اللبنانية قضية مهمة، ولكن قد يعود هذا إلى وضعي وعدم معرفتي».

تتراوح آراء النساء ما بين المطالبة بحركة نسائية أو اعتبار أن المرأة قادرة فردياً على تحصيل حقوقها. ويتعلق الأمر على ما يبدو بمدى انخراط النساء في اهتمامات ذات طابع عام. ولكن الملاحظ أن ثمة قناعة بإمكانية المرأة على تحقيق ما تريد، وأن عدم وصولها إلى ما ترغب فيه ناجم بالأكثر عن تقاعسها. ولا تضع النساء أنفسهن في إطار حركة نسائية عامة، لذلك يجري التشديد على القدرات الفردية والخاصة. وكأنما كل واحدة منهن حالة قائمة بذاتها، من هنا يجري تحويل الأمر ناحية المرأة نفسها، فيجري اتهامها بالجهل، وعدم المعرفة، وعدم التذكي الكافي. ويبرز العديد من الطروحات التقليدية الجامدة من قبيل الفصل ما بين الخاص والعام (الأمر فردي ولا ضرورة لحركة نسائية) أو تبني موقف الاحتياي والمداورة (الرجل ماريونيت وليس شريكاً).

بالمقابل يظهر لدى أكثر نساء العينة وعي بالمعوقات الاجتماعية وخصوصاً لجهة القانون. ويبدو موضوع الطلاق والزواج من امرأة ثانية من المواضيع التي تأخذ اهتماماً خاصاً لدى هؤلاء النساء بسبب احتكاكهن المباشر به. فالكثيرات منهن يرين في قوانين الأحوال الشخصية إجحافاً بحقهن، ويرفضن فكرة الزواج بأكثر من واحدة، وعدم تساوي الميراث، ويشرن إلى صعوبة وضع المرأة المطلقة. كل ذلك يشير إلى أن وعي هؤلاء النساء فردي على الأغلب وأن اهتمامهن يصبح أكثر نفاذاً حينما يتعلق الأمر بأمورهن الخاصة المباشرة. أما المواضيع العامة فتستلزم جهداً نظرياً عاماً لتحسيس النساء به. من هنا نسجل أن «جانيت» المرأة الجامعية التي كانت تعمل والمعجبة بلور مغيزل والمنخرطة حالياً في الشأن العام هي الوحيدة التي عبّرت عن وعي نسائي متبلور (عدم التساوي بالقانون وبالوظائف وثقافة المجتمع المتسترة) وليس منبنياً فقط على مصلحتها الخاصة.

٤ - التربية على الجندر

أجمعت النساء على المساواة في تربيتهن لأبنائهن. ولكن هذه المساواة اتخذت أشكالاً متنوعة. بالنسبة لجميلة «كنت أخاف على البنات لأنني هكذا تربيت. ولكن عندما لم يكن لديّ خادمة كنت أوزع عمل المنزل على الصبيان والبنات». ومريم ساوت بين

ابنها وابنتها وخافت أكثر على الابن وتقول «البنات مختلفة عن الصبي. أنا أخاف أكثر عليه مما على أخته. أراقب رفاقه وأماكن خروجه. أما ابنتي فهي correcte أعطيها رأيي وأنتظر ماذا تفعل. وهي في العادة لا تقوم بشيء مخالف لرأيي» وأيضاً جانباً «ربيت أولادي بدون تمييز» وفاطمة كانت «عادلة بين الصبيان والبنات. صحيح أن ابنتي اهتمت أكثر بشغل البيت ولكن ذلك بملء اختيارها. لا أجبرها على ذلك. أنا برأيي يجب على الصبي أن يعرف كيف يعمل في المنزل مثل البنات، ولكن في الواقع أولادنا ليسوا كذلك، بسبب المجتمع الذي يرفض أن يعمل الصبي في مثل هذه الأعمال».

عبّرت السيدات جميعهن عن رغبة في التعامل العادل مع بناتهن وأبنائهن. ولم تذكر أي واحدة منهن أن العمل المنزلي حكر على الفتيات دون الفتيان. إذن ثمة تطور أكيد لجهة الوعي بضرورة تربية مساوية بين الجنسين، حتى وإن كنا لا نغفل إمكانية أن تكون الممارسة الفعلية ليست متطابقة مع الوعي، ولكننا نعتقد بأن تطور الوعي بذلك هو مؤشر هام لا بد أن ينعكس في سلوك هؤلاء عاجلاً أم آجلاً.

ولكن ما يسجل هنا هو حصر الاهتمام بالمصلحة الشخصية الخاصة، وعدم تمكن النساء من توسيع مجال إدراكهن لما يتخطى هذا النطاق وتحويله إلى قضية نسائية عامة. وهذا ما يدفعنا لمراجعة مقولة ندلسكي السابقة من حيث إن التجربة الخاصة (تجربة الأمومة) يمكنها أن تحفز على تغيير الوعي النسوي/ الاجتماعي، التي تبقى صحيحة فقط في حال تقاطع الشائنين الخاص والعام وانفتاحهما بعضهما على بعض. فالأم «ست البيت» مختلفة عن الأم «العاملة» في لبنان ومختلفة عن الأم «ست البيت» في المجتمع الفرنسي حيث تشارك في الشأن العام (مشاركة في جمعيات أهلية، وفي إدارة مدارس الأبناء، وفي الترشيح للانتخابات المحلية...) (٣٧).

٥ - رسم شخصي

كيف تصفين نفسك؟ من أنت؟ كان السؤال محيراً بالنسبة للنساء. ما الصفة التي يعطينها لأنفسهن؟ البعض فتش وذهب إلى صفات شخصية عامة والبعض بدا كلامه مدروساً أكثر. فاطمة تصف نفسها بأنها «تستطيع أن تكون مسؤولة. أنا أحمل مسؤولية كل شيء بمفردي. ديناميكية، اجتماعية، مبادرة (صاحبة حشكة) مدبرة وصاحبة دراية» وميريانا ترى نفسها «هادئة، طويلة البال، أحس أن عندي شخصية قوية، راضية ولا أغار من أحد، طموحة، لا أحب أن أتعب في الحياة، أحب أن تصل الأشياء عند خدمتي» وجانيت تصف نفسها بأنها «حنونة، دمعتي سخية تنزل سريعاً،

(٣٧) راجع Deplancq-Nobécourt, Marie-Pascale

أحب أن أساعد الفقير المحتاج والمسنين» أما سيلفا فتقول عن نفسها «أنا امرأة جميلة إلى حد ما. مظلومة. لست قوية كثيراً. عادية ولست متكبرة. إذا قررت شيئاً أنفذه. أتمنى لو أعيش علاقة حب، أشعر بأن هناك شيئاً ما ينقصني». ومريم تصف نفسها بأنها «طموحة، متواضعة، تعمل ضمن الممكن ولا تحب المستحيل، مدبرة، أنا أعمل من اللاشيء شيئاً». وجميلة ترى أنها «إنسانة طبيعية وصادقة مع نفسي ومع الآخرين، أريد الخير لكل الناس، مسالمة ولكني أحقد إذا وجدت أذى من الناس الذين أعطيتهم. أنا امرأة لست فاشلة، أعرف ما أريد، وما أريده أقوم به، أقوم أحياناً بأشياء لا يعرف بها زوجي مع أن هذا السلوك مخالف للشرع، ولكنها ليست خاطئة. لم أحقق طموحي». وأخيراً رعدة ترى نفسها «عاقلة. عقلي رجعي. ومظلومة بالتأكيد، ما انبسطت بالحياة».

تتنوع مروحة الرسوم الشخصية، مثلما هو متوقع ولكن اللافت هو ذلك الأنا الذي يطل من بين الكلام، خجولاً أحياناً، واثقاً أحياناً أخرى، ولكنه في كل الأحوال عارفاً لنفسه وحدودها، غير متردد، من دون أن يضع نفسه في مواجهة خارج ظالم. فلا تعاني سيدات العينة اللبنانية من نظرة دونية تجاههن ولا يحاولن الدفاع عن أنفسهن بمواجهة ظلم لاحق بهن مثلما هو واقع حال سيدات العينة الفرنسية (كما رأينا سابقاً) هذا مع أنهن أشرن إلى وجود مثل هذا الظلم خصوصاً فيما يتعلق بأحوالهن الشخصية. ولكن لماذا؟

هنا أيضاً تطل مقولة قصور الوعي النسوي / الاجتماعي لتشكّل لنا معيناً على التفسير. إذ يبدو أن غيبة النساء عن قضايا المجتمع وانحسارهن في أدوار منزلية مغلقة، داخل فردانية تمثل نزوعاً قوياً في المجتمع اللبناني، ومن دون محاولة الانخراط في اهتمامات ذات طابع اجتماعي عام، فإن «ست البيت» تبقى عاجزة عن التقاط مظاهر العنف الخارجي الممارس عليها، ليس في حالته المستترة فقط (ثقافة تبخيسية للأنوثة الفاعلة) وإنما أيضاً في حالته المكشوفة أيضاً (عدم المشاركة في القرار السياسي). وما يلفت النظر في إجابات النساء هو تكرار كلمتي «الطموح» و«الظلم»، فما هي غاية هذا الطموح؟ وما هو مضمون هذا الظلم؟ هنا يبدو أن ثمة عملاً كثيراً بانتظار هؤلاء النساء لكي يتم ضخ محمولات هاتين الصفتين بالبعد الاجتماعي الضروري لحفز وعيهم. وإلا سوف يبقين مشدودات إلى أحد طرفي العلاقة الوهمية بين تبخيس الذات أو تمجيدها.

٦ - الاهتمامات العامة

ميريانا تحب كثيراً أن تشاهد «البرامج السياسية على التلفزيون». أحب أن أستمع إلى الصحفيين والسياسيين. لدي هواية بالسياسة كثيراً. لم يخطر ببالي أن أنضم إلى جمعية». ورعدة لا شيء يهتمها غير بناتها «أنا لا شيء عندي براً». وجميلة تحضر

«حلقات ذكر. أقوم بها كيوغا روحية. أفجّر طاقتي. أقوم بقراءات دينية وأستمع إلى ندوات ومحاضرات، محاضرة حول ترقق العظام مثلاً... درس الدين هو أكثر شيء أحب أن أقوم به». ومريم «أنا أخرج وأحضر ندوات وأخذ كورسات، أستفيد من وقتي. أحب أن أكون اجتماعية، فكرت أن أدخل إلى اللجنة النسائية في رابطة أسرة زوجي، ولكني وجدتهم يريدون أن يشتغلوا وجاهة. أقرأ جرائد ومجلات وكتب في التاريخ، مقالات زوجي أقرأها، وأقرأ كتب أولادي، وأتصفح مجلات أشغال فنية متخصصة». أما جانبتي فوقتها مليء «أقوم برياضة عند سيدة في منزل. ثم أنا عضو ومسؤولة في نادي في AUB وعضوة في نادي للقراءة. ومشروع هو الخدمة الاجتماعية. أهتم بالمسنين. أشعر بأن الكبار يحتاجون للرعاية، أتمنى لو أنني أستطيع أن أنشئ نادياً لرعاية المسنين».

تم أجوبة النساء عن تغير في العادات الاجتماعية، إذ لم تعد الزيارات والمناسبات الصباحية تشكل محور اهتمامات النساء، وهي وإن ما زالت ضمن حدود معينة إلا أن لدى «ستات البيوت» اهتمامات فردية وشخصية وانشغالات تجعل حاجتهن للجيرة أضعف بكثير من السابق. وثمة اختراق للشأن العام أخذ بالتزايد إلا أنه يتم على قاعدة التعلم والاكتماب والتلقي أكثر مما يجري على قاعدة الفعل والتأثير فيه، فواحدة فقط من المجموع كانت منضمة إلى جمعية والأخرى كلهن عملن على ملء أوقات فراغهن بأنشطة خاصة هدفها تطوير الذات.

٧ - الشخصية النسائية القوية:

من هي الشخصية النسائية التي تعجبك أكثر؟

الشخصية الأكثر وروداً في أقوال سيدات العينة كانت «منى الهرّواي»^(٣٨). وذلك لأسباب متنوعة «صحيح أنها استغلت نفوذ زوجها ولكنها فتحت مركزاً هاماً للرعاية» تقول جانبتي. أما فاطمة فهي معجبة بها لأنها «ست بكل معنى الكلمة. تشتغل. واجتماعياً تشعرين بأنها حنونة وكأنها أم للكل. أحس أنها مثقفة ومتعلمة من خلال كلامها. عندما كان زوجها رئيساً للجمهورية اشتغلت، وساعدت، عملت حملة عريضة للتلاسيما وما زالت حتى الآن تعمل، نشيطة. أنا أحب المرأة الحيوية». أما ميريانا فهي معجبة بها لأنها «كثير أحسها فهمانة وتبدو ست. عندما تنظرين إليها لا تجدن فيها عيباً حتى ولو صغيراً. قامت بمشاريع كثيرة وافتتحت مركزاً للتلاسيما. والمرأة المثالية يجب أن تكون مثلها. لديها ظهور. من طلّتها تعرفين إذا كانت الست متميزة».

(٣٨) زوجة رئيس الجمهورية الأسبق.

الشخصيات الأخرى تراوحت ما بين المطربة صباح «أحب شخصيتها القوية، لأنها إذا أرادت شيئاً تقوم به. لديها قوة. ليست ضعيفة. امرأة قادرة، حتى ولو كانت زعلائة تظهر أمام الناس على أنها قوية» (سيلفا). وما بين الأميرة ديانا «ليس لأنها أميرة ولكن لأنها متواضعة ومناضلة وتحب عائلتها. تحب أن تبعد عن التقاليد ولا تبقى مأسورة في الجو الارستقراطي المثالي. تحب أن تعيش حياتها الخاصة بحرية» (مريم). أما (جميلة) فهي، كما في كل مداخلاتها، مترددة في خياراتها لذلك تقول إن «نانسي عجرم تأخذ لي عقلي أحياناً ولكني لم أعد أحب الموسيقى. وأنا معجبة بسعاد صالح رئيسة قسم الفقة والشريعة في الأزهر وأيضاً تعجبني عبلة الكحلاوي، ولكن تنقصهما المعرفة بالنواحي الاجتماعية». ويبقى أن هناك من تعجبها أمها وحماها «لأنهما حقاً شيئاً مميزاً» (غريس).

إذا دققنا قليلاً بالشخصيات التي تثير إعجاب «ستات البيوت» نرى أنها دائماً تلك المنطلقة والمنفتحة والمعبرة عن نفسها بالعمل أو بالغناء أو بالكلام. لم تختر النساء سيدة أعمال وراء مكتب أو سياسية مشهورة، بل فضلن النساء المتحررات من قيود الوظيفة واللواتي تبدون للخارج مستقلات في قراراتهن وأفعالهن. وليس الأمر بمستغرب، فهن وجدن فيهن نماذج من زوجات قديرات وليس موظفات أو سياسيات مرتبطات بوضعية محددة، كما لو أنهن رأين فيهن تجسيداً لذلك الطموح الغامض الذي يعتمل في دواخلهن (منى الهراوي) وللخروج عن ذلك الظلم الذي يستشعرنه (صباح والأميرة ديانا).

إلى ذلك، ينم اختيار هذه النماذج أيضاً عن مدى تأثير ثقافة التلفزيون في أذهان «ستات البيوت». وهنا نتساءل هل يلعب التلفزيون دوراً تثقيفياً فعالاً في تعميق الوعي الاجتماعي؟ من تجربة نساء العينة يبدو الجواب سلبياً. فالنساء يأخذن من التلفزيون ما يناسب رؤاهن وقناعاتهن، وربما بسبب حاجز/الشاشة فإن ما يجري تلقيه لا يحرك فعلاً في القناعة الذاتية للناس، بالقدر نفسه الذي يحصل نتيجة التفاعل والاحتكاك المباشر على أرض الواقع، ناهيك بالطبع أن ما يقدم على التلفزيون ليس متجهاً على الدوام ناحية تغيير القناعات بقدر ما يتجه ناحية توظيفها والاستفادة منها.

III - استنتاج:

تدل أقوال «ستات البيوت»، بالرغم من انغلاقها، على تطور الوعي النسائي في المجتمع اللبناني (تربية متساوية للجنسين) وعلى تغير الصورة الاجتماعية المكرسة عن المرأة (نماذج النساء القادرات) بغض النظر عن عملها في الداخل أو في الخارج.

ولكن لئن كان هذان التطور والتغير ناجمين في تجربة المرأة الغربية عن صراع وتغير قناعات وتشذيب للوعي، إلا أنه لدى المرأة اللبنانية لا يبدو ناجماً عن جهد نسائي محدد، بقدر ما هو محصلة تجربة اجتماعية عامة بنتيجة انتشار التعليم والانفتاح والتعدد... وأيضاً بسبب خروج المرأة للعمل. وليس في ذكر العامل الأخير أي مفارقة، فإذا كانت «ستات البيوت» لا يعملن، ويعلن عدم ندمهن على ذلك، إلا أن موقفهن ينم عن تواطؤ مع رغبة أزواجهن في عدم العمل في الخارج، ولم تذكر أي واحدة منهن أنها رفضت العمل في الخارج مع أن زوجها كان يرغب في ذلك. وما يساعد على تبني سلوك التواطؤ هذا هو الإجحاف اللاحق بوضع المرأة العاملة، وضرورة التوفيق ما بين عملها في الخارج وفي الداخل مما يجعل الصورة المقدمة عنهن تتضمن نوعاً من التعب والصعوبة فيبدو من الأسهل على النساء الاكتفاء بالعمل المنزلي. من جهة أخرى قدمت نساء العينة تجربتهن بوصفها في خدمة الأولاد والزوج، أكثر مما هي في خدمة تحقيق ذات خاصة ومتميزة. وكل ذلك يشير إلى أن التطور الاجتماعي الحاصل ما زال يجري في صالح الرجال على نحو كبير (قبول اللامساواة باعتبارها قدرراً أو شأنناً خاصاً أو امتيازاً).

هذا التصالح مع الخارج، على الرغم من الإجحاف العام اللاحق بالنساء فيه، يبدو أمراً مستغرباً بسبب انصياع النساء لشروط تبدو مريحة أكثر مما هو تعبير عن توازن ونضوج شخصيين. إحدى النساء وكأنها تعبر عن واقع نساء العينة تقول «أنا تابعة بملء إرادتي» والأخرى تقول «أنا أحب الراحة» وثالثة ترى بأن لديها امتيازات عديدة... تبدو النساء متكيفات مع دورهن، وهو ما رأينا فيه قصوراً في الوعي. ولكن ما يكشف هشاشة التكيف لدى هؤلاء هي رغبتهن في عدم تشبه بناتهن بهن ودفعهن للدرس من أجل أن يعملن لاحقاً، مما يعني أن تكيف «ستات البيوت» المعلن هو نوع من التوافقية الواقعية ولا يعبر تماماً عن طموحهن، وأن هويتهم المتركة على الأسرة ليست في وضع مستقر أو ثابت. والمفارقة التي يثيرها وعي النساء بوجود ظلم لاحق بهن في مجالات معينة، وإظهار ميل توافقي معه، تبدو عائدة بالأكثر للتقدم بالعمر وما جنته هؤلاء النساء من مكتسبات أسرية متمثلة بأبناء في طور الاستقلالية ومنزل مرسوم على هواهن، ومساندة زوج (وإن بدرجة أخيرة، إذ عبرت اثنتان عن عدم اتفاقهما مع زوجيهما...) ومباركة اجتماعية، لم يعد معها السعي إلى تغيير الواقع المجحف أمراً ملحاً، خصوصاً وأن المجتمع اللبناني برمته يعيش حالة من الانسحابية السياسية (النضالية أو المطلبية) وعلى الأخص لدى هذا الجيل الخمسيني المرهق بحرب مديدة.

بالطبع هذا التحليل لا يمكن أن يجري تبنيّه إلا بالانطلاق من واقع أن «ستات

البيوت» هؤلاء هن من طبقة وسطى (دنيا وعليا) مكتفية مادياً بحيث تستطيع تدبير أمور حياتها براتب الزوج فقط. ومن المعلوم «أن الطبقة الوسطى جماعة مهمة للغاية: تمثل تناقضات الحياة المستحدثة وتجسد التوترات المثيرة للملامح الانتقالية في حركات التغيير المعقدة. (والنساء فيها) محصورات بين المعايير التقليدية للطبقة الدنيا اللاتي يرغبن جزئياً فحسب- في التخلي عنها، وبين المعايير الغربية للطبقة العليا التي يرغبن جزئياً في محاكاتها»^(٣٩). وهن جميعهن متعلمات بشكل يسمح لهن بتكوين صورة غير دونية عن أنفسهن، خصوصاً وأنهن يساعدن أولادهن في الدروس ويمسكن قرارات منازلهن بأيديهن، ومن المعلوم ما للمنزل والأسرة من مكانة مركزية في المجتمع اللبناني العربي.

إذن يبدو لنا أن ما افترضناه تدبيراً ذكياً أو تجربة نسائية متميزة، هو في الغالب عبارة عن مترتبات نظام اجتماعي ميّال بالأكثر ناحية مصلحة الذكور. وإن النساء إذ يعلنن توافقهن النسبي مع هذا النظام، مع أنهن يضمرن نزوعاً نحو تغييره (من خلال بناتهن) فإنما يدل الأمر على سلوك معقد، تجتمع فيه عناصر الضعف والقوة في آن^(٤٠). فالمطالبة بالتغيير تتطلب المواجهة، والمواجهة تستلزم شروطاً لا تبدو متوافرة لدى «ستات البيوت» المستقرات في تسوياتهن الأسرية. وهن إذ يعترفن بالضميم اللاحق بالنساء إلا أنه لا يمكنهن تحميل مسؤوليته للزوج أو الأبناء أو للوضعية الأسرية التي يعشنها والتي توائم مصلحتهن الخاصة. تقول مريم «يرجع الأمر إذا كان الرجل والمرأة يحبان بعضهما. وعندما يكون هناك وفاق، يجب أن تلغى فكرة المرأة والرجل. يجب أن ينظر إلى الشخص كشخص وليس كامرأة أو كرجل». إن التضامن الناشئ في الجماعة الأسرية يقلل من أثر التفاوتات الجندرية، فيشعر أفراد الأسرة الواحدة بأنهم يشكلون كلاً واحداً. وتتخذ أشكال العلاقات الأسرية تسميات مختلفة عن تلك السائدة ما بين خاضع ومسيطر، أو ضعيف وقوي. إن إلباس وضعية الظلم اللبوس الأسري، من شأنها التعمية على هذا الظلم. ومثل هذا التوجه لا نجده فقط في مقاربة المسألة النسائية وإنما في المقاربات الاجتماعية كافة. فحين يقال إننا أفراد مؤسسة يعملون كأسرة واحدة، وأبناء الطائفة يشكلون أسرة كبيرة، وهلم جرا... فإن من شأن ذلك إضعاف الشعور بالتفاوت المعاش على صعيد هذه «الأسر» وإضعاف الميل للمواجهة. ويزداد ضعف الميل للمواجهة في إطار تربية وتعليم يقوم على تعزيز «الفردانية» ضمن هذا الإطار الأسري المحصور، وتندر فيه لحظات التكاتف الاجتماعي العام.

(٣٩) ماكليود، مرجع سابق، ص ١٠.

(٤٠) المرجع نفسه.

هل تشكل «ستات البيوت» جزءاً من الحركة النسائية الجديدة؟ الجواب نعم بالتأكيد. فلنصغ لخطابهن المتنوع، المباشر والموارب، ولنستفد من دروسه، وفي رأسها أن الجهر والإعلان ليسا الأسلوب الأوحده في العمل، والقوة ليست ذات شكل محدد واحد، وانكسار اللحظة الآنية لا يعني خسارة الزمن. فبناتهن يقفن خلف الأبواب مسلحات بتعليم ورغبة للمشاركة، طموحهن يأخذ عناوين محددة والظلم اللاحق بهن ليس هوّامي المصدر. فلنفتح لهن الأبواب...